الحشيش أو بمضغه أو بالنظر إليه أو بذكر اسمه ، فحين يتعاطونه تغيب عنهم الهموم ويحضر السرور . وتُولّى الأحزان . ويرقص المكان . فمن يراهم على هذه الحالة وَدَّ لو يُكتب فى زمرتهم ويدخل فى دائرتهم وإن يكن قاضى القضاه » (١١) . ومن الواضح أن ملاحظة الشدياق عن أثر الحشيش فى توقيف جريان العقل ليتوفر لهم فى غيره كما يقول ملاحظة تبريرية ، ولكنها بعيدة عن الصواب ؛ فتَعاطى المخدرات له أسباب اجتماعية وشخصية واقتصادية لا يمكن إيجازها فى جملة أو سبب واحد . والحقيقة أن الصورة التى نقلها عن أحوال المصريين فى عصره مختلفة اختلافاً كاملاً عن الحقيقة التاريخية التى ذكرها مؤرخوا تلك الفترة وعلى رأسهم الجبرتى وكتّاب الحملة الفرنسية . أنظر إلى قوله : « ومع عظم ما كان يكسبه التجار وأصحاب الحرف وما يناله أهل الوظائف من الرزق العميم فكانت الأسعار بمصر رخيصة جدا . . . . » إلى قوله : « والرجال يخطرون بالخز والديباج . والنساء ينؤن بما عليهن من الحلىّ . والخيل والبغال والحمير مسرجة ومكسوة بالحرير المزركش » (١٢) . أين هذه الصورة الشاعرية المبهجة للمجتمع من قول الشعب فى هتافهم المأثور على واليهم « إيش تاخده من تفليسى يا برديسى » وتلك القصة المحفورة فى وجدان المثقف المصرى عن حفر القناة وسخرة العمال فيها الذين لم يزد أجر الفرد منهم عن مليمين إلى أربعة